

أراد الحرية للعقل واللغة والمرأة

امتلات حديقة الدار بزعيق صاحب... اختلطت فيه لهجة السفرجى النوى، وصوت البواب الصعیدی، ونبرة الجنائى الریفى، ونباح الكلاب الضخمة التى تحرس الدار القائمة وحدها فى شارع الهرم... لاشئ قبل هذه الدار، ولا شئ بعدها إلا فندق میناهاوس والأهرام، وأبوالهول!!

وأطل صاحب الدار من نافذة الطابق الأول، فرأى شجارًا عنيفًا... اشتبك فيه زائر ببذلة سوداء، وطربوش أحمر، والتف حوله الخدم، ينهرونه بالعبارات الصارخة، ويدفعونه بالأیدی، ويجذبونه من كتفه ليخرجوه من البيت! وكان الزائر يصيح: أريد أن أقابل سعادة المستشار! قال أحد الخدم: إن سعادة البك لا يقابل أحدًا فى منزله... وقال له خادم آخر أنت كذاب... إنك لم تطلب مقابلة المستشار... ولكن طلبت مقابلة الست الكبيرة!!

وقال له خادم ثالث : أنت رجل وقح، ولا بد من
ضربك !!

وكان المستشار قاسم أمين عندما أطل من النافذة، قد
سمع هذا الحوار... ورأى المشاجرة الحامية بين خدعه والزائر
الغريب... فأمر الخدم أن يكفوا عن الضجيج، وسأل
الزائر: هل تريد مقابلي لأمر يتعلق بقضية من القضايا؟
وقال الزائر: لا...

لو حدثتني عن قضية... فسوف أدعو النيابة إلى
التحقيق معك... وقد ينتهي التحقيق بالقبض عليك...
الزائر: ليس لي قضية عندك ولا عند سواك من
المستشارين؟

- هل تعلم لماذا اخترت هذا المكان النائي لأسكن فيه؟

الزائر: لا أعلم !!

- لاكون في عزلة عن الناس... إن المتقاضى يختلف عن
المريض في شيء واحد... المتقاضى يطمئن إلى قاضيه إذا
كان القاضي بعيداً عنه وعن خصومه... والمريض لا يطمئن
إلى طبيبه إلا إذا كان قريباً منه !!

الزائر : أريد مقابلتك لشيء آخر...

- تفضل...

ومشى الزائر، وقد تقدمه السفرجى ليدله على باب الغرفة
التي كان قاسم أمين يتحدث من شرفتها... ورحب قاسم
بالزائر، وسأله هل يشرب قهوة أو شايًا أو عصير ليمون؟

وفتح الزائر فمه بكلمة، والتفت قاسم أمين إلى السفرجى
وقال له : قهوة سادة يا حسن!!

ومرت لحظة صمت، كان الزائر خلالها يتأمل في هذا
المستشار الذي اكتسب سمعة طيبة في نزاهته وعدله، وكفائته
القضائية... واكتسب سمعة أخرى سيئة في أفكاره!... فهو
في نظر الجمهور إباحي فاسق فاجر... وهل هناك دليل على
الإباحية والفسق والفجور، أكثر من أن ينادى رجل بأن تخلع
المرأة برقع الحياء... وتغشى في الطريق بوجه مكشوف. وليس
هذا فحسب... بل إنه يريد للمرأة أيضًا أن تختلط بالرجال،
وتمارس أعمالهم، وحقوقهم، وواجباتهم، وهكذا تتساوى المرأة
بالرجل، وتنقلب من مجرد متعة، أو قطعة أثاث في
البيت... إلى إنسان له رأى، وإرادة وتفكير...

أيه جريمة نكراء تنطوي عليها تلك الدعوة الجريئة ؟ وبماذا
تصف رجلا يرتكب مثل هذه الجريمة ؟ إن أقل ما يوصف به
أنه زنديق، كافر، متساهل في عرضه وشرفه !!

ومع ذلك، ويا للعجب!... يضرب أصدقاؤه بعدائه
الأمثال، ويتكلمون عنه كما يتكلمون عن رجل شريف!!
وجاءت القهوة، والتفت الزائر حوله، فلم يجد في الغرفة
غير قاسم أمين ومكتب صغير، وبعض الكتب والمقاعد، فدنا
منه وقال له :

- أنا عاوز الست بتاعتك!...

وقال قاسم أمين في هدوء :

- عاوزها في إيه ؟

قال الزائر : أأست تدعو إلى اختلاط المرأة بالرجل،
والقضاء على الحجاب ؟ أعطني امرأتك لأخرج معها!..

وابتسم قاسم أمين في مرارة وقال للزائر : إن الدعوة إلى
السفور والقضاء على الحجاب، وإعطاء المرأة حقها
كإنسانة... لايعنى تحويلها من متاع خاص للزوج، إلى متاع
عام للناس ! ودعوتى إلى تحرير المرأة من رق الحجاب، وسجن

الحريم، هى فى الوقت نفسه... دعوة إلى تحرير الرجل من مفهومه للمرأة... ولن تتحقق حرية المرأة إلا إذا تحقق تحرر الرجل من نظريته إلى المرأة!!

قال الزائر: ولكننا لم نفهم هذا من نظريتك التى تنادى بها!!

وقال له قاسم أمين: لن تفهم النظرية حتى تتحرر!
قال الزائر: إلى حرية الرجل تدعو... أم إلى حرية المرأة؟

- أنا أدعو إلى تحرر الإنسان... والإنسان رجل وامرأة!!
وبكى الزائر المجهول، وأصر على أن يقبل يد قاسم أمين... فرفض قاسم وقال له: لا تمنح قبلك إلا لامرأة... زوجتك، أمك، أختك... فإذا كانت المرأة التى تقابلها ليست الزوجة ولا الأم، ولا الأخت... لمن حقك، بل من واجبك، أن تقبل يدها!! وهذا هو الفرق فى معاملة الرجل والمرأة!!

كان ذلك فى عام ١٩٠٧... وكانت دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة قد لقيت ضجة فى رأى العام... وقد

تحمس المتزمتون لمحاربة الشائر المفكر المصلح، واتهموه بشر التهم، وحمل عليه رجال الدين حملة شعواء، وتصدى للرد عليه في كتاب خاص... شاب أصبح فيما بعد، من أكبر الشخصيات العظيمة التي بنت اقتصادنا، وساهمت في تصنيع بلادنا... وهو طلعت حرب باشا!!

وقبل أن يموت طلعت حرب... كان بين موظفي البنك الذي أنشأه بضع فتيات. ورفعت ابنته الحجاب، وأعطاهما والدها حق الموافقة على الزواج من خطيبها محمد رشدى الذى صار رئيس مجلس إدارة بنك مصر فيما بعد...

وكان أصحاب الرأى، وقادة الفكر، يكتمون إعجابهم بشجاعة قاسم أمين، وبرغم ما يربطهم به من صلات الصداقة والزمالة... لم يستطيعوا أن يجازفوا بتأييده فى دعوته الخطيرة... خوفاً من أن تنالهم السنة السوء!!

... أيد لطفى السيد قاسم أمين بتحفظ وحذر... التزم سعد زغلول الصمت، فلما أصبح زعيماً للبلاد، فى عام ١٩١٩... شجع حركة السفور التى قامت بها فى تلك الأيام هدى شعراوى وأم المصريين!!

ولكن هذا التأييد، وهذه الحركة جاءت بعد وفاة قاسم أمين بحوالى أحد عشر عامًا!!

وما دعا إليه قاسم أمين فى كتابه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»... قد يبدو الآن أمرًا عاديًا، ولكنه فى تلك الأيام كان ثورة اجتماعية عميقة، زلزلت الأفكار، والآراء...

وإذا كانت الثورات تستمد قوتها وغناها من اندلاعها ساعة وقوعها فإن الثورة التى قام بها قاسم أمين لم تشتعل عندما حدثت، فقد قاومها العرف والتقليد، والمتصدون للدفاع عن الأديان والعقائد... قاومتها جمهرة الشعب لأنها لم تكن قادرة على فهم الدعوة، وقاومها الحكام والإقطاعيون ليحتفظوا بمظاهر الجاه المتمثلة فيما يملكونه من حريم! وقاومها الاحتلال البريطاني خوفًا من أن يرميه الشعب بمساعدة الداعين إلى خرق العادات والتقاليد!!

ولقد قدر قاسم أمين ما ستثيره دعوته المضنية من النفور والخوف والفرع... ولكنه لم يبال ذلك، فى سبيل ما يؤمن بأنه حقيقة. ولقد مهد لكتابه «تحرير المرأة» بمقدمة قال فيها: «هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم، شغلت فكرى مدة

طويلة، كنت خلالها أقلبها، وأمتحنها، وأحللها، حتى إذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ، استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني، وصارت تشغلني، وتبهنى بمزاياها، وبال الحاجة إليها... فرأيت أن لا مناص من إبرازها!!»

ولم يكد كتاب «تحرير المرأة» يخرج من المطبعة، حتى هبت عواصف السخط والنقمة على قاسم أمين...

ولم يهتز قاسم للعواصف الحمقاء... فقد كان يدعو إلى فكرته بمنطق ووعي، وإيمان. وكان الضمير هو القوة الوحيدة التي يعتمد عليها، والقوة الوحيدة التي يجسدها...

فهو صاحب سلوك خاص مستقل. في أفكاره، ومشاعره ونظرته العامة إلى الأمور... وقد يرضى المجتمع عن هذا السلوك وقد يثور عليه... ولكن قاسم أمين لا يبالي الرضا ولا يبالي الغضب... إن كل ما يباليه هو أن يتمشى سلوكه الذهنى، والعاطفى، والاجتماعى، مع فلسفته القائمة على تنمية الحياة بالحب، والخير، والحرية والجمال ونقاء الضمير...

ويبدو هذا واضحا في أحكامه القضائية، وفي سعيه إلى

إنشاء الجامعة المصرية، وفي مطالبته بتحرير المرأة وفي دعوته إلى تيسير قواعد اللغة حتى يستطيع الناس أن يقرءوا ليفهموا... لا أن يفهموا ليقرءوا.

كان قاضيًا رحيماً، وكانت أحكامه تتعارض أحياناً مع حرفية القانون... ولكن الأسباب التي يشرح بها ما يصدره من أحكام، لفتت إليه انتباه المشتغلين بالفقه والقانون وكبار رجال القضاء، ورأوا في هذه الأسباب نظريات قانونية، أكثر عدالة من القانون نفسه... ولهذا شق طريقه في السلك القضائي، حتى وصل إلى منصب المستشار وهو في حدود الأربعين... وكانت هذه السن تعد طفولة بالنسبة إلى قاض عادي، فضلاً عن مستشار في محكمة الاستئناف!!

وقد ساعده على انطلاق تفكيره في حرية، وإبداء رأيه بشجاعة، ثقافته الواسعة، واستقامة خلقه، فهو يعتز بكرامته، إلى أبعد حد... ولا يتملق الحكام وأصحاب السلطان، ولا يمارس من العادات والهوايات ما يشير شُكاً أو ريبة، وكان يقضى أكثر وقته في بيته المنعزل عن ضوضاء المدينة يعكف على دراساته القضائية، والأدبية، والعلمية، والاجتماعية...

وهذه الشخصية المهذبة المترفة، ليست وليدة أسرة غنية ذات جاه... فقاسم أمين من عائلة متوسطة الحال، أبوه مصرى، وجده أمير كردى، ولكن إمارة الجدة انتهى ثراها بوفاة صاحبها!! شخصية قاسم أمين إذن نبعت من نفسه، وصقلها العلم، والخلق، ونفسيته الطيبة، المتحررة المشغوفة بالجمال.

وقد درس فى فرنسا، وعاد إلى مصر فى عام ١٨٨٥، وشغل إحدى الوظائف القضائية، وظل منذ ذلك التاريخ، يسير فى الحياة على منهجه المستقيم: زوج مثالى، أب مثالى لابنة وحيدة، قاض مثالى، مفكر مثالى، مصلح اجتماعى مثالى...

وكانت رياح الغضب تهبّ عليه من الرأى العام، فلا تؤثر فى آرائه، ولا تزعزع عقيدته، ولا نشير أعصابه، فقد كان هادئاً وديعاً... وكان يؤمن بالحرية إيماناً مطلقاً... يدافع عن حرته، ويدافع عن حرية مخالفيه... ولو كانت طريقتهم فى الجدل تم عن الجهل والتعصب، ورميه بأقذع الشتائم والسباب...

إن القاضى قاسم أمين، لم يصدر حكماً واحداً بالإعدام

على أحد من المجرمين... لأنه يرى - منذ ستين عامًا - أن الإعدام عقوبة لا يمكن علاجها إذا ثبت خطأ القاضي... ومن أقواله الماثورة: «إن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لإصلاح الذنب، ومعاقبة الشر بالشر، إضافة شر إلى شر»..

وهو صاحب الكلمة المعروفة: «أعرف قضاة حكموا بالظلم، ليشتهروا بين الناس بالعدل!!»..

هذه الآراء كانت كفيّلة في تلك الأيام، أن تسوقه إلى المحكمة، أو تقصيه عن مركز انقاضي، ولكنها لم تسل من مكانة قاسم أمين؛ لأن إيمان الرأي العام بنزاهة قاسم، وعمق تفكيره، وإخلاصه في رأيه، كان أقوى من غضب الرأي العام نفسه على ما يرى في هذه الآراء من شذوذ، وجنوح عن المؤلف..

وقد فكر جماعة من المفكرين في إنشاء جامعة مصرية، وكان بينهم زعماء معروفون، وأصحاب نفوذ سياسى، وخطباء يلهبون مشاعر الجماهير بالعبارة الرنانة أو الكلمة الساحرة مثل سعد زغلول، وكان قاسم أمين، واحدًا من هؤلاء المفكرين،

ولكنه لم يكن زعيماً، أو سياسياً، أو خطيباً.. ومع ذلك تولى مهمة إقناع الناس بالفكرة.

كان يطوف بالأقاليم، ويعقد الاجتماعات، ويشرح الهدف من إنشاء تعليم جامعي.. فنظام التعليم القائم لم يكن يهدف إلى رفع مستوى العقل، وتحرير الفكر من ريقه الجهالة... وإنما كان هدفه ملء الوظائف الحكومية بأصحاب مؤهلات خالية من الثقافة العلمية!! وكان من يشغل وظيفة ينقطع عن متابعة الدرس والبحث، ويتفرغ لمتابعة الترقى من درجة إلى درجة!!

وكان قاسم أمين وزملاؤه يرون أن التعليم لا ينبغي أن يكون وسيلة لوظيفة، وإنما يجب أن يكون وسيلة وغاية للإنسان. وفي ذلك يقول: «نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم في مصر وسيلة لمزاولة صناعة، أو الالتحاق بوظيفة، بل نطمح في أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حباً للحقيقة، وشوقاً إلى اكتشاف المجهول.. فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم... نود أن نرى من أبناء مصر - كما نرى في البلاد الأخرى - عالماً يحيط بكل العلم الإنساني،

واختصاصياً أتقن فرعاً مخصوصاً من العلم، ووقف نفسه على الإلمام بجميع ما يتعلق به، وفيلسوفاً اكتسب شهرة عامة، وكتائباً ذاع صيته في العالم.. أمثال هؤلاء هم قادة الرأي عند الأمم الأخرى.. والمرشدون إلى طريق نجاحها.. والمدبرون لحركة تقدمها..

« إن عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم، هو عيب عظيم، يجب أن نفكر في إزالته، وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التي غفلت عن تربية إحساسنا، وأهملت تربية قلوبنا، فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج، في جميع أمورنا، حتى في الأشياء التي يجب بطبيعتها أن تكون بعيدة عن الفوائد... كعلاقات الأقارب والأصحاب... »

ويقول: « إن الارتقاء في الإنسان تابع لإحساسه، وإن أكثر الناس استعداداً للكمال هم أصحاب الإحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث، وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً، فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة... أولئك هم السعداء الأشقياء... الذين يتمتعون، ويتألمون، أولئك هم السابقون في ميدان الحياة، تراهم في

الصف الأول مخاطرين بأنفسهم، يتنافسون في مصادمة كل صعوبة... من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم، وتوحي إليه بأسرارها فيصير شاعراً بليغاً، أو عالماً حكماً، أو ولياً طاهراً... كريماً!!».

ثم يقول: «ولى أمل عظيم أن إنشاء الجامعة المصرية يكون سبباً في ظهور شبيبة هذا الجيل، وما يليه على أحسن مثال»..

بهذا الوضوح وهذا الفهم العميق، وهذا الاقتناع بالفكرة، استطاع قاسم أمين أن يقنع الشعب، بسوجوب إنشاء تعليم جامعي، ولم يكن قاسم أمين خطيب جماهير، ولكنه كان أستاذاً محاضراً، يستخدم المنطق، والنظريات، ويعبر بأسلوب سهل متحرر من الركاقة، والاعتماد على انتفاخ اللفظ، وفراغه من أى معنى... وكان صوته المدوى لا ينطلق من حنجرته، ولكن ينطلق من نبض أفكاره ومعانيه.

وقد سجل الدكتور محمد حسين هيكل باشا في كتابه «تراجم مصرية وغربية»، أن قاسم أمين ظل عاملاً مع أصحابه مجداً يستنهض الهمم ويجمع الأموال، ويهتئ كل

أسباب نجاح الجامعة، وأنه بين فكرته عنها في خطاب القاه بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالمنوية المناسبة وقفه خمسين فدائاً للجامعة... فإذا قال قاسم أمين عن هذا التبرع أو هذه الأرمية؟ هل نخلع على صاحبها صفات الكرم والسخاء التي كان الناس يخلعونها على من يتبرع بخمسة جنيهات لمشروع خيرى؟ كلا... ولكنه قال: «إن الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً، ولا تعلن عن نفسها. عاش أبائنا، وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم، وحاربوا الأمم، وفتحوا البلاد، ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم، فيحسن بنا أن نفتدى بهم... فتهجر القول، ونعتمد على العمل»...

إن قاسم أمين المصلح المفكر ينتهز كل فرصة ليقم مفهوماً جديداً صحيحاً للمعاني والتصرفات، فتبرع الناس لإنشاء جامعة ليس تضحية منهم، ولكنه واجب يؤدونه لوطنهم. والوطنية شعور غريزي، لا تصح المباهاة به أو الإعلان عنه!!

وتأمل قاسم أمين في اللغة التي نعبّر بها، فوجد أننا نؤلف الحروف والألفاظ، ولا نؤلف جملة! أما إذا استخدمنا

تعبيراً تعلمناه عن الأقدمين فيجىء أصم غامضاً، باهتاً أو فارغاً يحدث رنيناً ليس له معنى !

فكان يبحث دائماً عن الجملة المعبرة التي نسمع لها فرقة، وكان يحسن الحسرة كلما وجد أننا لا نستطيع أن نقرأ لغتنا قراءة صحيحة : فنادى بتيسير قواعد اللغة، وغالى في ذلك، حتى إنه دعا إلى تسكين أواخر الكلمات.

ويقول : «لم أر بين جميع من عرفتهم شخصياً من يقرأ كل ما يقع تحت نظره في غير لحن، أليس هذا برهاناً كافياً على وجوب إصلاح اللغة العربية ؟ لي رأى في الإعراب أذكره هنا بوجه الإجمال... هو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأي عامل من العوامل. بهذه الطريقة - وهي طريقة جميع اللغات الإفرنكية واللغة التركية أيضاً - يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال، بدون أن يترتب على ذلك إخلال باللغة، إذ تبقى مفرداتها كما هي».

ويقول أيضاً : إن اللغة العربية مرت عليها القرون الطويلة وهي واقفة في مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام، في حين أخذت اللغات الأوربية تتحول وترتق كلما تقدم أهلها في

الأدب، والعلوم. حتى أصبحت النموذج المطلوب في السهولة والإيضاح والدقة، والحركة، والرشاقة، وصارت أنفـس جـوهرـة في تاج المـدـن الحديث.



ولقد أحب قاسم أمين المرأة، ورأى فيها جوهر الحب، والحنان، وكان يقول: «إذا كان المال زينة الحياة.. فالحب هو الحياة بعينها» ويقول: «كل عشق شريف، فإن كان بين شرفين زاد في قيمتهما ورفع من قدرهما، وإن كان بين وضعين ألسهما شرفاً وقتياً».

وليس حبه المرأة هو الذى دفعه إلى العمل على تحريرها، ورد حقوقها إليها ولكن دعاه إلى ذلك عمق تفكيره في الحرية، واتساع نظره إلى الإنسانية. وهو فيما دعا إليه قد تأثر ولا شك بتعاليم الثورة الفرنسية، وثورة جمال الدين الأفغانى وشخصية محمد عبده، وكان يمكن أن تموت صيحات قاسم أمين على فمه، لو لم يكن مقتنعاً بها، عن وعى وإيمان، ولكن صيحات قاسم أمين أصبحت سلوكاً اجتماعياً، ومناهج معترفاً بها.

فقد صار لنا تعليم جامعي، وتطورت لغتنا، واكتسبت
الرشاقة والحركة، بدون أن تلجأ إلى مادعا إليه من تسكين
أواخر الكلمات، وقام من بعده زميل له هو عبد العزيز فهمي
باشا يدعو إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية.. وكانت
دعوة عبد العزيز فهمي متأخرة أربعين عامًا!!

واتجاه قاسم أمين إلى إلغاء عقوبة الإعدام، أصبح اتجاه
كثيرين، أو موضع مناقشة الكثيرين من المشتغلين بالفقه
والقانون!!

وتحرير المرأة من رق الحجاب والجهل، والانعزال عن
المجتمع، لم يعد فكرة.. بل هو أمر واقع، تجاوز ما أشار إليه
قاسم أمين بمسافات كبيرة..

وعندما أصدر قاسم أمين كتابه «تحرير المرأة» خرجت
طالبات المدرسة السنية سافرات الوجوه، وسرن في شارع
البتديان، وكتبت الصحف في ذلك الحين، أن الطالبات سرن
كما تسير العاهرات... بلا حجاب!! ومشى الناس وراءهن
يرمونهن بالحجارة!!

وفى مساء ٢٣ أبريل من عام ١٩٠٨، كان المستشار قاسم أمين يحتفل فى نادى المدارس العليا بوفد الطالبات الرومانيات اللائى يزرن مصر، وذهب إلى بيته واستقبلته زوجته وبنته، ولم يكذ يأوى إلى فراشه.. حتى شعر بانقباض.. ثم لفظ آخر أنفاسه.. فقد مسات بالسكتة القلبية..

وارتفع من هذا البيت لأول مرة صوت صاحب من سيّدة.. تبكى زوجها أحر بكاء.

هذا البيت.. باعته أسرة قاسم أمين، وتحول فيما بعد إلى كباريه، حمل عشرة أسماء، وآخر هذه الأسماء هو «الأريزونا»!